

وإذا ما قال العرب إن كل شيء يتكلم فإننا نجد لقولهم هذا سنداً قوياً من الآثار الدينية في القرآن والحديث وما ينقله المفسرون من هبة الله لمخلوقاته وما من عليهم من نعمة اللغة ونعمة فهم منطق الكائنات المختلفة ومخاطبتها.

وما دما قد دخلنا في أمر المعرفة اليقينية عن لغة الأشياء فإننا نشير إلى ما يتردد اليوم في الدراسات العلمية الحديثة، التي تقول بوجود جهاز عصبي في الأشجار به تحسّ وتدرك ما حولها من العالم، وتنفعل إيجاباً أو سلباً مع نوايا الناس في تعاملهم معها.

وفي جنوب أفريقيا وجد العلماء أشجاراً تتبادل المعلومات فيما بينها، فإذا هاجم الغزلان إحداها أرسلت إشارات إلى سائر الأشجار في الغابة، فتقوم هذه الأشجار بإفراز مواد سامة تحمي أوراقها من الغزاة ويبلغ مدى هذا التبادل والتراسل بين الأشجار عشرات الأمتار. وهذه لغة خاصة تتجاوب مع عناصر الرسالة اللغوية من وجود مرسل ومرسل إليه، ورسالة لها سياقها وشفراتها ووسيلة الأداء. وشروط التشفير فيها وفك الشفرة تسير على سببية مترتبة تؤدي به الرسالة وظيفتها وتحقق غايتها.

ومن هنا فإن: كل شيء يتكلم.

وهذا قول قاله الأعراب وتقوله الخرافات والحكواتيون، مثلما يقوله الشعر. ويجد هذا الزعم الشعري مصداقاً وتصديقاً له ببعض ما ورد في الآثار اليقينية، وما يرد في العلم الحديث. فاللغة إذن هي الظاهرة الأشمل وليس الإنسان إلا جزءاً من هذه الظاهرة.